الصوفية

فى اخلاقهم

للأستاذ
حسن كامل الملطاوى

ألقيت بنادى التجارة فى ١٠ رمضان سنة ١٣٨٤ هـ
١٢ يناير سنة ١٩٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله ، الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، فرحمهم بالدعوة إلى الله بإذنه ، وتركنا على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الإهالك ورضى الله عن آله وصحبه الذين بلغونا عنه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، فصاروا المثل العليا لمن أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، ورضى الله عن كل أسلافنا الصالحين الذين التزموا الجادة فى الدين وعن شيوخنا الصوفية الذين تولوا تربيتنا فى جنب الله يريدون وجهه ، سبحانه هو الذى أهلهم من فضله لينوبوا عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إبلاغ آداب الدين ، ما ظهر منها وما بطن ، بما أودع فى قلوبهم من أنوار حبه ، واشراقات قربه ، وأخص منهم سادتى الأجلاء الأقربين ، العارفين بالله سيدى الشيخ محمد أبى خليل ، الإمام الأكبر ، والعالم الأشهر ، صاحب وقته ، وقطب عصره ، ساكن ضريحه الأنور بالزقازيق ، وسيدى عبد السلام الحلوانى خليفته المبرز الذى ربى تلاميذه بالحال والمقال ، وساكن ضريحه المشرق بقرافة ابن الفارض ، وسيدى الشيخ على عقل العالم الربانى الذى غذى أرواحنا بالهامه الصافى الذى آتاه من عالم الملكوت ، وساكن ضريحه المبارك بالإسكندرية .

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا ياجرير المجامع

جزاهم الله عنى وعن إخوانى كل خير ، ورفع الله قدرهم فى صفوة أوليائه ، وخاصة أحبابه وجعلنا فى الاقتداء بهم أتقياء صادقين آمين وبعد .

فإن السادة الصوفية هم العلماء الربانيون ، الآخذون دينهم بعزم وقوة ، والحافظون لحدود الله ظواهرهم وبواطنهم ، وهم آدميون بأجسادهم ، وملكيون بأنوارهم ، لذلك وصفهم الإمام أبوبكر الكلاباذى فقال : خرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم ، وجلت عند ذى العرش أخطارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم .

وبهذا الوصف صاروا أئمة الحق ، وعلماء الصدق ، الداعين إلى الله على بصيرة ، وقد قال تعالى منوها بفضلهم فيما خاطب به حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم :

(قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى)

وانى إن نقلت إليكم طرفا من أخلاقهم وآدابهم ، فإنما أقرب لكم سبيل الهدى لتتشبهوا بهم ، أو تحذوا حذوهم ، وبالله التوفيق .

وبعد

فقد عرف بعض أئمة الصوفية التصوف فقال : هو الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى .

ولهذا حرص الصوفية على الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى ، وجعلوا أسوتهم فى سلوكهم العالى سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إتباع لقوله تعالى :

(لقد كان لكم فى رسول أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) .

وامتثالا لقوله تعالى :

(وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

والمؤمنون فى كل جيل مجمعون على التأسى به صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم متفاوتون فى درجات التأسى ، ولما كان الصوفية هم أئمة المؤمنين وخاصتهم ، فانهم فهموا عن الله بحسن الاتباع ، وأخذهم الدين بقوة العزائم دون الرخص والتأويلات ، وقد قال تعالى :

(وإن تطيعوه تهتدوا)

لذلك رأيناهم حرصين كل الحرص على طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن طاعته طاعة لله ، بدليل قوله تعالى :

(من يطع الرسول فقد أطاع الله)

كما أنهم يحذرون مخالفته صلى الله عليه وسلم ويتذكرون قول الله تعالى :

(فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

وهم يقولون ان محبة الله للمؤمنين ، ومحبة المؤمنين لله فى اتباعه صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى :

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم)

وعندهم أن الأسوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، هى التأسى به فى جميع ما صح من أخلاقه وأفعاله وأحواله ، وأوامره ونواهيه وندبه

وترغيبه وترهيبه ، إلا ما قام الدليل على خلافه ، كقوله تعالى فى زواج الهبة (خالصة لك من دون المؤمنين) .

لذلك قالوا : انه يجب علينا نحن المؤمنين أن نعظم ما عظم ، ونصغر ما صغر ، ونقلل ما قلل ، ونكثر ما كثر ، ونكره ما كره ، ونختار ما اختار ، ونترك ما ترك ، ونصبر على ما صبر ، ونعادى من عادى ، ونوالى من والى ، ونفضل من فضل ، ونرغب فيما رغب ، ونحذر ما حذر :

وسأتناول بالكلام بعض الأخلاق التى تخلقوا بها وهى كما سترون قائمة على فقههم العميق للكتاب والسنة .

الصدق فى الدين

يرى السادة الصوفية أن الله تعالى طيب ، ولا يقبل من العمل إلا ماكن طيبا ، ولا يطيب العمل فى جنب الله إلا بالصدق فى الدين ، ولا يتم الصدق فى الدين إلا بإصلاح البواطن ، ولا تصلح البواطن إلا بمجاهدة النفس فى هواها ، لأنها أمارة بالسوء كما وصفت فى القرآن ، ولأنها أمارة بصيغة المبالغة يجب أن يكون جهادها جادا لا هزل فيه ولا تهاون ، وهم يقولون فى إرشادهم لنا أن الله فرق بين الصادقين وغيرهم من المؤمنين فقال فى الصادقين (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وقال فى غيرهم (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

ويقولون أن الله تعالى جعل المؤمنين درجات على قدر يقينهم ، وخص سبحانه وتعالى أولياءه بالفضل ، وعم خلقه بالعدل ، فقال فى الخصوص :

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله)

كما قال فيهم :

(ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العالى)

وقال فى العموم :

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط)

وتلك مقامات المقربين ، فقد دخلوا تحت حكمين لم يخرجوا منها ، أعلاهم دخل تحت فضله ، وأدناهم لم يخرج من عدله .

كذلك يقولون ان البعد عن الله حجاب ، والمبعد فى عذاب ، والقرب نعيم ، والمقرب على مزيد ، وقد فرق الله بين المبعدين والمقربين ، فقال فى المبعدين :

(كلا إنهم عن ربهم يؤمئذ لمحجبون ثم إنهم لصالوا الجحيم) .

وقال فى المقربين :

(فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) .

فروح بقرب ، وريحان من حبيب ، وجنة نعيم ، بقرب منعم ، وقد قال الروح بالقرب ، والمحيا بالحضور .

فروحى وريحان إذا كنت حاضر وإن غبت فالدنيا على محابس

إذا لم أنافس فى هواك ولم أغر عليك ففيمن ليت شعرى أنافس

ويقول أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه :

إنى أحب إلها لا شريك له وذاك روحى وريحانى وتبتيلى

ليلى نهارى أناديه ويسمعنى وإذ ينادى فكى السمع يزهولى

السعى إلى الله

ويقولون لو أحببت الله لنظرت إليه ، ولو نظرت إليه لعميت عما سواه

ولو أقبلت عليه لا ستمعت إليه ، ولو استمعت لصممت عن غيره ، ولو أحبك لكان سمعك وبصرك ، وقلبك ، ويدك ، وناصرك ومؤيدك ، تدعوه فيجيبك وتسأله فيعطيك ، فهو سبحانه وتعالى العلى ، وأحباؤه الأعلون لأن الأعلا سبحانه معهم .

ويقول أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه :

أسعى لخلاقى وأقصد وجهه ... وعن السير إليه لن أتخلفا
يامالكا روحى ومانحها الهدى ... انظر إلى فأنت أكرم من غفا
ان قيل من قلت امرؤ فى ربه ساع ... وهذا فى انتسابى قد كفا
لا والذى غمر العباد بفضله ... أنى بغير الله لن أتشرفا

وكذلك يقول رضى الله عنه :

فتشت كل الخلق عن علم فلم ... أر لى سوى رب السما من والى
فتركت كل العالمين وجئته ... وجعلت ذكرى ذاته منوالى
يانفسى إنى لا أمالىء غيره ... قومى إلى حوض الكريم تعالى
الله قربنى إليه بذاته ... لم يرض لى فى الحب أى تعال
إن الذى فهم المحبة قلبه ... فى القدر من بين البرية عال

تربية القلب على التقوى

وهم يعلقون أهمية كبرى على القلب باعتباره محل التقوى ، ويذكروننا بما قاله صلى الله عليه وسلم (التقوى ها هنا) وأشار إلى القلب ، وبما جاء فى الخبر :

(إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له زاجرا من نفسه وواعظا من قلبه)

وبما جاء فى خبر آخر :

(من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ) .

ويقولون فى معنى قوله تعالى (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا) ، أى سمعناه من قلوبنا لأنه تعالى قال (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) ، وفى ضده قال تعالى لأعدائه :

(أولئك ينادون من كان بعيد) ، أى بعيد عن قلوبهم ، كما أنه تعالى قال فى تحقيق العمى للقلب (فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

ويروى الصوفية عن إمامنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه : أن لله فى أرضه آنية وهى القلوب ، فأحبها إليه أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسر ذلك فقال أصلبها فى الدين ، وأصفاها اليقين ، وأرقها على الاخوان .

كما يروون الحديث النبوى الشريف ، قيل يارسول الله من خير الناس ؟ قال كل مؤمن مخموم القلب ، ثم فسره صلى الله عليه وسلم فقال ، وهو التقى النقى الذى لا غش فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد .

ويشير أستاذى الشيخ على عقل إلى هذه التقوى وفضلها فيقول رضى الله عنه :

وإن غرسوا زرعا لنيل حصاده فتقوى إله العرش بين الورى غرسى

وإن جعلوا الشمس اهتداء ليومهم جعلت رضا ربى وآيته شمسى

وإن شرب الناس الطلا وتصببوا فسنة خير الخلق فى شربها كأس

كما يرينا أن التقوى لا تنال إلا بجهاد متواصل فى الله فيقول :

وما المحبة قولا قد نزخرفه بل المحبة قلب قد وهبناه

أمسى على أرق أشتاق فى حرق بالدمع فى غرق قصدى محياه

لا أنثنى عن هواه لحظة أبدا وكيف أسلو وقلبى بيت تقواه

ما رد ربك عبدا عن موارده وهل يرد كريم من ترجاه

كما يستندون إلى وصية مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم لوابصة حين قال له استفت قلبك وإن أفتاك المفتون فأخبره بذلك ان قلبه فقيه منور بالإيمان ويستطيع أن ينظر به بعلم فوق علم العلانية ، ويخرجون من ذلك إلى أن علم القلب هو حقيقة الفقه ، ولولا ذلك ما رد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحبه فتيا أهل الظاهر إليه ولا حكم على المفتين به .

ويؤيدون فهمهم هذا بما قال تعالى (ففهمناها سليمان) أى خصه بفهم منه زاده به فوق حكم أبيه ، ويقولون ان العلماء الربانيين الملهمين ليسوا واقفين مع حفظ ، إنما هم قائمون بحافظ .

الإطمئنان لخواطر القلوب التقية

ويقولون : إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب ، كان العبد مرة مع الله ، ومرة مع نفسه وهواه ، فإذا دخل الإيمان إلى باطن القلب ، توله العبد فى حب الله وهجر شهواته وهواه .

لذلك يحضون المؤمنين على تعلم اليقين ويستدلون بقوله صلى الله عليه وسلم (تعلموا اليقين) أى جالسوا الموقنين واسمعوا منهم علم اليقين لأنهم علماؤه وفى الحديث : قيل يارسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال أجتناب المحارم ، ولا يزال فوك رطبا بذكر الله قيل ، يارسول الله ، فأى الأصحاب

خير ؟ قال صاحب إذ ذكرت أعانك وإن نسيت ذكرك . قيل فأى الأصحاب شر قال صاحب إن سكت لم يذكرك ، وإن ذكرت لم يعينك ، قيل فأى الناس أعلم ، قال أشدهم لله تعالى خشية ، قيل فأخبرنا بخيارنا نجالسهم ، قال الذين إذا رءوا ذكر الله تعالى ، قالوا فأى الناس شر يارسول الله ، قال اللهم اغفر ، قالوا أخبرنا يارسول الله ، قال العلماء إذا فسدوا .

وفى الحديث عن جابر بن عبد الله قال : لا تجلسوا عند كل عالم إلا عالم يدعوكم من خمس إلى خمس ، من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد ومن الكبر إلى التواضع ، ومن العداوة إلى النصيحة .

وقال الفضيل بن عياض وهو من كبار الصوفية : إنما هما عالمان ، عالم دنيا ، وعالم آخرة ، فعالم الدنيا علمه منشور ، وعالم الآخرة علمه مستور ، فاطلب عالم الآخرة ، واحذر عالم الدنيا لا يصدنك بسكره ثم قرأ (إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) ، قال فالأحبار العلماء والرهبان الزهاد .

وقيل للامام الجنيد رضى الله عنه : يا أبا القاسم يكون لسان بلا قلب قال كثير . قيل فيكون قلب بلا لسان قال نعم قد يكون ، ولكن لسان بلاء قلب بلاء وقلب بلا لسان نعمة ، قيل فإذا كان لسان وقلب ، قال فذاك الزبد بالعسل .

ويقول الامام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه ، كفى بعلم القوم شرفا أن يطلبه سيدنا موسى عليه السلام من الخضر عليه السلام حين أعلمه الله أنه أوتى علما لدنيا ، فقال للخضر عليه السلام :

(هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا) .

ولهذا يوجب سيدى عبد الوهاب الشعرانى على كل مسلم أن يأخذ دينه عن أولياء الله الذين نور الله قلوبهم وآتاهم تقواهم .

ويقول الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه أن شيخه الإمام عبد السلام بن مشيش أوصاه فقال له : لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس إلا حيث تأمن من معصية الله ، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينا .

ويقول أستاذى أستاذى الشيخ على عقل رضى الله عنه فى أئمة الهدى هؤلاء الذين تأخذ عنهم دينك ، ليزداد بهم يقينك :

إذا لم يكن للنفس شيخ له هدى يؤدبها بالروح زاغت عن السير

ولا يعبر البحر الخضم ونوأه سوى ماهر يدرى الملاحة فى البحر

ولولا اتصال الكهرباء بأصلها على موجة التيار ما نورها يسرى

ويروى السادة الصوفية عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

(ليس شىء خير من ألف مثله إلا الإنسان) .

ويقولون : إن قلب الموقن خير من ألف قلب مسلم .

ويقول الإمام سهل التسترى : يعطى الله تعالى بعض المؤمنين من الإيمان بوزن جبل أحد ، ويعطى بعضهم مثل ذرة ، لذلك رفع الله العلماء على المؤمنين درجات فقال تعالى :

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

وفسرها ابن عباس رضى الله عنه تعالى فقال ، الذين أوتوا العلم فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ، بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض .

ويفسر السادة الصوفية الخبر القائل : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) أى باليقين ، ويؤيدون تفسيرهم هذا بقوله تعالى :

(قد بينا الآيات لقوم يوقنون) .

أى بنور اليقين .

ويقول السلطان الحنفى رضى الله عنه فى هذا المقام :

أخذت العلم عن قلبى عن الأسرار عن ربى

ويقول أستاذى العارف بالله الشيخ على عقل :

دخلنا روضة قوماً حيارى تجلى سره الأعلى علينا

ألان القطف حتى ان قطفنا ثمار الحب عدنا قاطفينا

وعزت دانيات مائلات فنلنا من تمايلها الشجونا

سكرنا لا بخمر يد ولكن بعلم الله مولانا سقينا

ويروى السادة الصوفية فى فضل اليقين الحديث الشريف : قيل يارسول الله رجل حسن اليقين كثير الذنوب ، ورجل مجتهد فى العبادة قليل اليقين فقال ما من آدمى إلا وله ذنوب ، ولكن من كانت غريزته العقل ، وسجيته اليقين ، لم تضره الذنوب ، وذلك لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وندم فتكفر ذنوبه ، ويبقى له فضل يدخل به الجنة .

آدابهم فى الصلاة

ينوه الصوفية بفضل الصلاة وأهميتها ويقولون ان الله تعالى حين مدح رسول الله صلى الله عليه وأصحابه ، وصفهم بالركوع والسجود فقال تعالى :

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) .

فهذا يدل على أن الصلاة أفضل الأعمال ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أفضل العمال .

ويروون عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا رأيت الرجل حافظا لصلاته ، فظن به خيرا ، وإذا رأيته مضيعا لصلاته ، فهو لما سواها أضيع .

وكان الحسن البصرى يقول : ابن آدم ماذا يعز عليك من دينك ، إذا هانت عليك صلاتك ، فأنت على الله تعالى أهون .

وفى الخبر : من حافظ على الصلوات الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا وبرهانا يوم القيامة ، ومن ضيعها حشره الله تعالى مع فرعون وهامان .

وفى حديث أبى كاهل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (من صلى أربعين يوما الصلوات فى جماعة لا يفوته منها تكبيرة الاحرام ، كتب له براءتان : براءة من النفاق وبراءة من النار) .

وقال بعض الصوفية : للصلاة أربع فرائض :

إجلال المقام ، وإخلاص السهام ، ويقين المنال ، وتسليم الأمر .

وهم يروون فى تفسير قوله تعالى :

(سابقوا إلى مغفرة من ربكم) .

يعنى تكبيرة الاحرام أى وراء الإمام لأنه جاء فى الحديث الشريف : صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة . ويقولون سميت الصلاة صلاة ، لأنها صلة بين العبد وبين الله عز وجل ومواصلة من الله تعالى لعبده ، ولا تكون المواصلة والمنال إلا للتقى قال تعالى: (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) .

ولا تكون التقوى إلا بالخشوع ، لذلك قال تعالى (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) وكذلك يقولون أن المراد من الصلاة ليست حركات الأجساد ، بل المراد منها الانتهاء عن الفحشاء والمنكر .

ويروون أن الربيع بن خيثم كان يختلف إلى منزل ابن مسعود رضى الله عنه ، فكان ابن مسعود إذا نظر إلى الربيع قال (وبشر المخبتين) ، أى الخائفين الذاكرين ، الصابرين المقيمين الصلاة . أما والله لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لفرح بك وفى لفظ آخر لأحبك .

ويروون أن الربيع رضى الله عنه كان يختلف إلى منزل ابن مسعود رضى الله عنه عشرين سنة لا تحسب جارية ابن مسعود إلا أنه أعمى ، لشدة غض بصره ، وطول إطراقه إلى الأرض بنظره ، وكان إذا دق الباب عليه تخرج إليه الجارية ، فإذا رأته قالت لعبد الله بن مسعود ، صديقك ذاك الأعمى قد جاءك ، فكان ابن مسعود يضحك ويقول ويحك ذاك الربيع.

وكان الربيع هذا يقول . مادخلت فى صلاة قط فأهمنى فيها إلا ما أقول وما يقال لى .

ويروون أيضاً أن عامر بن عبد الله رضى الله عنه كان من الخاشعين فى صلاتهم ، وأنه سئل ذات يوم : هل تحدث نفسك فى الصلاة بشىء ؟ قال نعم بوقوفى بين يدى الله عز وجل ومنصرفى إلى احدى الدارين . قيل فهل تجد شيئا مما نجده من أمور الدنيا ؟ فقال ، لان تختلف الأسنة فى أحب إلى من أن أجد شيئا فى الصلاة مما تجدون .

وقال بعض الصوفية : الصلاة من الآخرة ، فإذا دخلت فى الصلاة ، فقد خرجت من الدنيا .

ويقول أستاذى الشيخ على عقل رضى الله عنه :

ان الصلاة إذا لم تنه صاحبها ليست صلاة وان يقضى بها الطلب

صلاتنا تمنع القاضى ليطلبنا وتحجب الجلد عنا وهو مقترب

لكنها لم تكن من حيث مظهرها معنى الصلاة إذا ما القلب ينحجب

وهذه درجة الأولياء فى الصلاة ولا تتأتى للمؤمن مره واحدة : بل هى تقتضى الرياضة والتدرج حتى تمتلىء البصيرة نورا ، فيذوق المصلى ما يذوقون من تلك المشارب ، ولكن يجب علينا أن نفرغ القلب من الشواغل الدنيوية ما استطعنا إلى ذلك سبيلا حين نقف بين يديه تعالى فى الصلاة لنذوق حلاوة المناجاة ، لأن الصلاة كما يقول السادة الصوفية بحق ، موائد الموحدين ، والأقوال فيها كالأطعمة ، والأفعال كالأشربة ، ولا يتذوقها المصلى إلا بقدر ما عقل منها ، ولذلك كان سيدى أبو الدرداء الصحابى رضى الله عنه يقول : من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله فى الصلاة ، ليدخل فى الصلاة وقلبه فارغ .

ويقول السادة الصوفية فى معنى قوله تعالى :

(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) .

ان ذكره تعالى لك وأنت فى الصلاة أكبر من ذكرك لـه ، وقد ورد فى الحديث القدسى أنـه إذا ذكرت ربك فى نفسك ، ذكرك تعالى فى نفسه وإذا ذكرتـه فى ملأ ، ذكرك فى ملأ خير منـه ، وأين نفسك من نفسه ، وأين ملؤك ملئه تعالى .

والصوفية حين يقرأون القرآن في الصلاة يتدبرونـه تدبرا عميقا تنتفع منـه أرواحهم ، و هم يقولون أن التمام في التلاوة أن يتدبر التالى باطن الكلام ، لأنه عزيز من عزيز، و لطيف من لطيف، و حكيم من حكيم، وعلى من على، ظاهره سهل قريب، و باطنـه بحر عميق، يقول السامع إذا عقله قد فهمته لتجلى فحواه ، فإذا شهده كأنه ما سمعه لدقيق معناه.

آدابهم فى الصيام

أما عن الصيام فإنهم يقولون إن المراد من الصيام مجانبة الآثام لا الجوع والعطش ، وقد فرض الله الصيام لكسر شهوات النفوس ولمعاونة المؤمن على إخضاع هواها .

وصوم الخصوص عندهم يقوم على حفظ الجوارح الست : غض البصر عن الحرام ، وصون السمع عن الاصغاء إلى محرم ، أو القعود مع أهل الباطل ، وحفظ اللسان عن الخوض فيما لا يعنى جملة ، مما أن كتب عنه كان عليه ، وان حفظ له لم يكن لـه ، ومراعاة القلب ، بعكوف الهمة على الله سبحانه ، وكف اليد عن البطش إلى محرم من مكسب أو فاحشة ، وحبس الرجل عن السعى فيما لم يؤمر به ولم يندب إليه من أعمال البر .

وهم يقولون : أن من أفطر بتلك الجوارح الست أو ببعضها ، وصام

يجارحتين ، البطن والفرج فما ضيع أكثر مما حفظ ، وهو مفطر عند العلماء ، صائم عند نفسه ، ومثل من صام عن الأكل وأفطر بمخالفة الأمر مثل من مسح كل عضو فى صلاته ، فصلاته مردودة عليه لجهله .

ومن آدابهم فى الصيام ، الإكثار من ذكر الله تعالى ، وتقليل ذكر الخلق باللسان ، واسقاط الإهتمام عن القلب ، وترك المجادلة والمخاصمة وإن شتموا أو ضربوا لم يقابلوا السيئة بالسيئة تعظيما لحرمة الصوم .

ويروون حديثا عن جابر عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خمس يفطرن الصائم : الكذب : والغيبة ، والنميمة ، واليمين الكاذبة ، والنظرة بشهوة .

كما أنهم يروون الخبر (من اغتاب خرق صومه ، فليرقع صومه بالاستغفار) والحديث الشريف الذى يقول فيه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من لم يترك قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يترك طعامه وشرابه) .

آدابهم فى الزكاة

ومن آدابهم فى الزكاء ، أن الصوفى يخرج زكاتة فى أول ما تجب عليه ، ويقدمها عن وقتها إن جاءته فرصة يخاف فوتها كأن يجد غازيا فى سبيل الله أو ابن سبيل غريب ، لأن ذلك عندهم من المسارعة إلى الخير ومن المعاونة على البر والتقوى :

ويقول أستاذى على عقل رضى الله عنه حاضا على الزكاة والانفاق فى سبيل الله تعالى :

تترك المال للوريث ولكن تؤنس القبر تركة الصالحات

خل عنك الدنيا من خدموها خدعتهم والذنب للخدمات

والصوفى يخرج زكاته طيبة بها نفسه ، مسروراً بها قلبه ، مخلصا لربه يبتغى به ، لارياء فيها ولا سمعة ولا تنصع ، ولا يجب أن يطلع عليها غير الله تعالى ، ولا يرجو فى إعطائها ، ولا يخاف فى منعها سواه ، وإذا أعطى الصوفى من زكاته للفقير لا ينتقصه ولا يزدريه .

والصوفية يفضلون الاعطاء سراً ، ويفسرون قوله تعالى :

(لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) .

فيقولون المن أن تذكرها ، والأذى أن تظهرها وقال بعضهم هو أن تستخدم الفقير بالعطاء ، والأذى أن تعيره بالفقر .

وقيل أيضاً المن أن يتكبر عليه المعطى ، والأذى أن ينهره ويويخه .

ويستدلون فى تفضيل صدقة السر بالحديث الشريف سبعة يظلهم الله فى ظاله يوم لا ظل إلا ظله . أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله ما أعطت يمينه ، وهذا الوصف مجاوزة الحد فى الاخفاء لأنه إذا أخفى عن نفسه فكيف يظهره لغيره .

ولكنهم مع هذا يقولون لا بأس أن معروفك إن نويت إبراز السنة وقصدت أن يقتدى بك غيرك ، وذلك من التحاض على إطعام المسكين وقد ندب الله إليه فى قوله تعالى :

(وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية) .

السر : التطوع ، والعلانيه : الصدقة المفروضة ، فمن أظهر نفسه فأظهر إليه صدقتك ، ومن أخفى نفسه فأخفها له .

ويجعل الصوفى صدقته من أفضل ما يحبه من المال ، ومن جيد ما يدخر ويقتنى وتستأثر به النفوس فيؤثر مولاه به ، كما أمره بذلك فقال تعالى :

(أنفقوا من طيبات ما كسبتم) :

ثم زاد تعالى :

(ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون منه ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) .

أى لا تقصدوا الردىء فتجعلوه لله تعالى ، ولو أعطى أحدكم ذلك لم يأخذه إلا على كراهية وحياء ، والله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وفى الحديث ابان عن أنس رضى الله عنه (طوبى لعبد أنفق من مال اكتسبه من غير معصيه) .

وهم يقولون إذا دعا لك مسكين عند الصدقه ، فأردد عليه مثل دعائه حتى يكون ذلك جزاء لقوله ولتخلص لك صدقتك ، وإلا كان دعاؤه مكافأة على معروفك .

ويروون أن السيدة عائشة والسيدة أم سلمة رضى الله عنهما ، كانتا إذا أرسلتا معروفا إلى فقير ، قالتا لرسولهما ، إحفظ ما يدعو به : ثم يردان عليه مثل قوله ويقولان حتى تخلص لنا صدقتنا ، وفعل ذلك الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابنه الإمام عبد الله ابن عمر .

ومن خصال السادة الصوفيه أن يقصدوا بصدقاتهم إلى الفقراء الصالحين الصادقين من أهل التصوف والدين ، ممن يؤثرون التستر والإخفاء والذين قال تعالى فيهم (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) ويقولون إن الله تعالى وصفهم فقال . (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله) أى حبسوا فى طريق الآخرة لضيق المعيشة وقال (لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل

أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس ألحافا) أى أنهم مقصوصوا الأجنحة إذ المال للغنى بمنزله الأجنحة للطيور ، والإلحاف هو الإلحاح وفى هذه المناسبة تخضرنى نكته مضحكة ، فقد جاء سائل لرجل فاضل فألح فى السؤال فلم يعطه لكراهة إلحاحه : فقال السائل فى فلسفة بالقرآن أين الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، فأجابه الرجل الفاضل : ذهبوا مع الذين كانوا لا يسألون الناس إلحافا .

ويروون أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه إلى بعض الفقراء بمعروف ، وقال للرسول احفظ ما يقول ، فلما أوصله إليه قال : الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ، ولا يضيع من شكره ، ثم قال ، اللهم إنك لم تنس فلانا (يعنى نفسه) ، فاجعل فلانا لا ينساك فأخبر رسول الله صلى الله عليه بذلك ، فسر به وقال : قد علمت أنه يقول ذلك .

وكذلك يروون عن سيدنا الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لأن أصل أخا من إخوانى بدرهم ، أحب إلى من أن أتصدق بعشرين درهما ولأن أصله بعشرين درهم أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم ، ولأن أصله بمائة درهم . أحب إلى من أعتق رقبة ، لأن الله تعالى ضم الأصدقاء إلى الأقارب ، فكان فضل الصدقة على الأقارب دون البعيد .

ومن آدابهم يدفعون فى الزكاة المفروضة المئين ، وفى صدقة التطوع (النافلة) الألوف ، ويصلون الفقير بما يخرجه من حد الفقر ، ومن الحاجة والضر ، إلى حد الكفاية والغنية .

ويستندون فى ذلك إلى حديث حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم (خير الصدقة ما أبقت غنى)

وهم يعطون العطاء على قدر العيلة ، لأن مولانا رسول الله صلى الله

عليه وسلم كان يعطى المتأهل ضعف ما يعطى الأعزب ، ويعطى كل رجل على قدر أهل بيته.
وهم يقولون أن الله تعالى وصف أهل الحاجة بأوصاف خمسة ، جاءت متفرقة القرآن الكريم.
فقال تعالى : (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) .
وقال تعالى : (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) .
وقال تعالى : (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) .
والقانع هو الذى فى بيته ويقنع بما يسوقه الله إليه من غير طلب ولا تعرض للسؤال ، والمعتر هو الذى يتعرض للناس بالسؤال ، وقد جاء فى الخبر (ليس المسكين الذى ترده الكسرة والكسرتان ، والتمرة والتمرتان ، إنما المسكين المتعفف الذى لا يسأل الناس ولا يفطن له ، فيتصدق عليه .
وقد كان بعض الصوفية إذا جاء فقير يسأله شيئا ، يهش فى وجهه ويقول له :
مرحبا بمن جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجره
وهم يفضلون فى العطاء فقراء الصوفية ، ويبررون هذا التفضيل بأن الصوفيه همهم الله سبحانه وتعالى ، فإذا اشتغلوا بغير الله تشتت بالهم ، ويقول إمام من أئمة الصوفية : لأن أرد همة واحد إلى الله تعالى أحب إلى من أن أعطى ألفا من غيرهم ممن همه الدنيا ، وقد ذكروا هذا الكلام للامام أبى القاسم الجنيد سيد الصوفية فى القرن الثالث الهجرى فاستحسنه وقال :

هذا كلام ولى من أولياء الله تعالى ، ثم قال : ما سمعت منذ زمن كلاما أحسن من هذا .

أما الإمام عبد الله بن المبارك رضى الله عنه وهو من أجلاء التابعين . فكان يجعل معروفه فى أهل العلم خاصة ، فقيل له : لو عممت به غيرهم فقال : إنى لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء ، فإذا اشتغل قلب العالم بالحاجة أو العيلة ، لم يتفرغ للعلم ولا يقبل على تعليم الناس ، فرأيت أن أعينهم وأكفيهم حاجاتهم ، لتتفرغ قلوبهم للعلم ، وينشطوا لتعليم الناس ، ولقد أصاب الإمام ابن المبارك فى رأيه هذا ، فقد قال إمامنا الشافعى رضى الله عنه : لو كلفت بصلة ، ما فهمت مسألة فى العلم .

وإنما خص الإمام ابن المبارك العلماء بهذه الرغبة لأنه كان عالم زمانه ، ولقد قال له أحد الناس مرة يا عالم الشرق والغرب وما بينهما ، ذلك بأن ابن المبارك كان راسخا فى العلم عامة وفى الفقه والحديث والتصوف خاصة .

ويسركم يا أهل هذا النادى ، وأنتم رجال التجارة ، وأن تعلموا أنه كان من أكبر تجار وقته ، ولكن تجارة الدنيا لم تلهه عن تجارة الآخرة ، فقد جاء فى تاريخه أنه كان يحج عاما ويغزو عاما فى سبيل الله ، وكان ينفق كل إيراده ، ولا يخشى الفقر ظنه بالله تعالى .

وقد وجد فى طريقه إلى الحج بعض البنات اليتامى ، وعلم أنهن لم يذقن طعاما ثلاث ليال سويا حتى هممن أن يأكلن اضطرار بطة ميته ويقمن بها رمقهن ، فأعطاهن كل نفقات الحج وقفل راجعا إلى بلدته (مرو) من أعمال خراسان .

ولا تعجبوا بعد ذلك أن يقول فيه شاعرهم :

إذا سار عبد الله عن مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

إذا ذكر الأخيار فى كل بلدة فهم أنجم فيها وأنت نهارها

وكان الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان يأخذ من أرباح تجارته مما يكفيه هو وعياله قوت سنة وينفق مازاد على ذلك ، ولا يتقيد بالزكاة المفروضة وحدها ، ولا عجب فإن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : المال مال الله وأنا عبده .

آدابهم فى الحج

أنهم يقولون فى قوله تعالى :

(ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)

أن الاستطاعة فسرها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالزاد والراحلة ، واستنادا لذلك يرون أن العبد إذا وجد الزاد والراحلة لزمه فرض الحج . فإن أخره بعد وجود ذلك كان مكروها، فإن مات ولم يحج أو مات على عدم الإمكان بعد وجوده كان عاصيا لله تعالى من حين أمكنه إلى يوم موته ، ولم يكن كامل الإسلام .

وحجتهم فى ذلك أن الله تعالى أكمل الاسلام بالحج ، لما أنزل قوله تعالى فى الحج يوم عرفة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)

ويرون عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لقد هممت أن أكتب إلى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطع إليه سبيلا .

ويرون عن ابن عباس رضى الله عنه قوله : من مات ولم يزك ولم يحج ، سأل الرجعة إلى الدنيا وكان يفسره فى هذه الآية (قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت) . قال ، أحج ، وكذلك قول الله تعالى : (فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) .

قال فى تفسيرها أزكى وأحج ، وكان رضى الله عنه يقول : هذه الآية أشد شىء على أهل التوحيد ، ومن كان ذا قوة على المشى ، أو ممن يصلح له أن يؤجر نفسه ، وأمن التهلكة فى خروجه فحج على ذلك ، كان فاضلا فى فعله .

وهم يرغبون فى الحج ماشيا على القدم ، لأن للحاج الماشى بكل قدم يخطوها سبعمائة حسنة وللراكب بكل خطوة تخطوها دابته سبعون حسنة ، ويقولون أن القوة على المشى من الاستطاعة عند بعض العلماء .

وقد قرأت فى تاريخ مولانا الامام الحسين بن على رضى الله عنه أنه حج خمسا وعشرين مرة ماشيا على القدم ، وإبله تقاد بين يديه ، وكان يتنحى عن الطريق العام بعيداً عن الناس حتى لا يقلده فى المشى من لا يستطيع ذلك

ويروى الساده الصوفية أن عبد الله بن عباس رضى الله عنه ، أوصى بنيه عند موته فقال : يا بنى حجوا مشاة ، فإن للحاج الماشى بكل قدم يخطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، وقيل وما حسنات الحرم ؟ قال الحسنة بمائة ألف .

ثم أنهم يرون أن يعتبر الحاج بكل ما يرده إلى الله تعالى . فيستدل باعتباره هذا على حكمته ، ويشهد منه قدرته تعالى ، كما أنهم يحضون على الحج بالحديث الشريف (الحجاج والعمار وفد الله تعالى وزواره ؛ إن

سألوه أعطاهم ، وإن استغفروه غفر لهم ، وإن دعوه استجيب لهم ، وإن شفعوا شفعوا) .
وقد لقى رجل عبد الله بن المبارك رضى الله عنه ، وقد أفاض من عرفه إلى مزدلفة فقال ، من أعظم الناس جرما يا أبا عبد الرحمن فى هذا الوقت فقال من قال ان الله عز وجل لم يغفر لهؤلاء .
ويفسر السادة الصوفية قوله تعالى :
(ليشهدوا منافع لهم) .
فيقولون يغفر لهم ورب الكعبة .
ومن طريف ما يروى الصوفية أن إماما من أئمتهم اسمه سيدى على بن الموفق حج حججا عن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له :
(يا ابن الموفق ، حججت عنى ، قال فقلت له ، نعم يارسول الله ، قال ولبيت عنى ، قلت نعم، قال فهذه يد لك عندى ، أكافئك بها يوم القيامة آخذ بيدك فى الموقف فأدخلك الجنة والخلائق فى كرب الحساب) .
ويقول أحد الصوفية الأقدمين متشوقا إلى البيت الحرام فى رقة وعذوبة ظاهرة :

قف بنا ياسعد ننزل ها هنا فأثيلات النقيا موعدنا
إن لمع البرق من خفيف منى جدد الوجد وهاج الحزنا
كلما طرز أثواب الدجى وشيه أحرم عينى الوسنا
وديار حول بطحا مكة يأمن الخائف فيها ماجنى
من لعينى أن ترى كعبتها أو تمس الركن منها الأيمانا
آل ذاك البيت انى جاركم لم يكن جاركمو ممتهنا

زاركم صحبى وعنكم عاقنى زمنى كم ذا ألوم الزمنا
أنا منكم وإليكم وبكم فاذكروا عهداً قديما بيننا

ويقول أستاذى الشيخ على عقل رضى الله عنه متشوقا إلى ربه ورسوله والحجاز :

دع زمانا مضى وعد بى لأرض شغفتنى بنورها المتلالى
بين بيداء روعت ووهاد وذئاب تختال فى إقبال
ونجوم مثل الحباب على الكأس تسامت أو كالحلى واللآلى
قيل ماذا تريد من هذه الأرض أتبغى البقاء فى جمع مال
قلت والله غير أحمد مالى بعد رب للعباد من آمال
ياحببى رضاك دنيا ودين فهما باتباعكم صحالى

وفى الختام أدعو الله تعالى لكم ولنا ، أن يرزقنا مكارم الأخلاق مع الله ومع عباده وأن يجعلنا ممن يطيعون الله ورسوله الطاعة التى تدخلنا برحمته فى الصالحين مصداقا لقوله الكريم .

(ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) .

وسأحاضر بإذن الله بقاعة الشيخ (محمد عبده) بالأزهر الشريف يوم الثلاثاء القادم الموفق ١٧ رمضان الساعة الثامنة مساء فى موضوع ((الصوفية فى تدبرهم للقرآن الكريم)) والدعومة عامة ، وأشكركم على حسن استماعكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)) .

١٠ رمضان سنة ١٣٨٤ هـ
١٢ يناير سنة ١٩٥٦ م